AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

كـناش الحائـك

أو

مجموعة أغانى مغربية من القرن الثانى عشر الهجرى

784
M38

معهد مولاى الحسن

*

784
H149kaA

«كناش الحائك»
أو
مجموعة أغاني مغربية من القرن الثاني عشر الهجري

المحاضرة التى ألقاها باللغة العربية

الدكتور ضون فرناندو بلدراما مرتينث

فى قاعة الحفلات بنيابة التربية والثقافة
بتطوان يوم ٢١ مارس ١٩٥٣

١٩٥٣
دار الطباعة المغربية
تطوان

مطبعة كريماديس ـ شارع محمد الطريس ١٧ ـ تطوان المغرب

اصحاب السعادة ، سيداتى وسادتى :

قبل ان اشرع فى الكلام حول موضوع هذه المحاضرة لا بد لى ان التمس المعذرة من الجميع لاننى من الطبيعى ان ارتكب عددا غير قليل من الاخطاء فى التعبير والنطق ، لكنى أؤمل من كرم الجميع ان يصفحوا عن هذه الاخطاء خصوصا اذا اعتبروا اننى أكلمهم باللغة العربية ولست لهذا مطلعا على اسرارها .

ولا يفوتنى ان اقدم هنا شكرى الخالص الى صديقى العزيز الاستاذ الكبير السيد محمد عزيمان لما قدمه لى من مساعدة فى تعريب هذه المحاضرة .

فى يوم ٦ يوليه سنة ١٩٥٠ ترددت الاناشيـد الدينية باللغة العربية لاول مرة فى قاعة كنيسة سان بطرس برومه ، وكان ذلك بمناسبة استقبال قداسة البابا لعشرين الفا من الحجاج المسيحيين من بينهم كثير من المصريين ٠

عند ما قرأت هذا النبأ خطر ببالى انه من الممكن ان تكون تلك الموسيقى الدينية محتوية على بعض خصائص او بعض آثار، او على الاقل على بعض ذكريات من تلك الموسيقى الرائعة التى كانت طيلة قرون بهجة الحفلات الكبرى فى قصور الاندلس الفخمة ، او من تلك الموسيقى التى كانت تتردد فى الشوارع من فم الى فم قائمة على نوع من الشعر هو مزيج من الفصحى والعامية ، ذلك الشعر الذى هو الآن موضوع دراسة ممتعة لمعرفة مدى تأثيره فى اوربا ٠

تلك الموسيقى الاندلسية التى ورث العرب ألحانها عن الاغريق كما ورثوا عنهم كثيرا من مظاهر الثقافة كانت مقسمة الى «نوبات»· ولفظة «نوبة» هذه غير محدودة المعنى تماما ، وقد اختلف مدلولها مع الزمن ، ففى القرن الثامن للمسيح نجدها تستعمل بمعنى مرة ، او دور ، وفى كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ما يدل على ان الموسيقيين كانوا يستعملون لفظة نوبة للدلالة على الدور الذى يقوم به كل واحد منهم فى حفلة موسيقية من الحفلات التى كانت تقام فى القصور او حيثما اجتمع عدد من المغنين ، وفى رسائل «اخوان الصفا» ما يدل على ان كل مغن كان يشارك بدوره الذى يتألف من مجموعة من القطع وان ذلك الدور يسمى «نوبة» ·

وبعد ذلك نجد كلمة «نوبة» تطلق على الموسيقى التى يعزفها جوق او فرقة وعلى الجوق نفسه، وبهذا المعنى تستعمل الآن فى المغرب فى اصطلاح الموسيقى العسكرية ·

وسنستعمل كلمة «نوبة» اثناء هـذه المحاضرة بمعنـى قطعة موسيقية كاملة مؤلفة من عدة الحان ونغمات ، بهذا المعنى تبدو لنا «النوبة» كأنها مجموعة من الاغانى المستقلة وان كانت كلها تتعلق بموضوع واحد ضم بعضها الى بعض مع الزمن

ووصلت الينا مجهولة المؤلف مثلها فى ذلك مثل الكاتدرائيات الكبرى نتيجة جهود اجيال ، وثمرة عقول رجال مجهولين الآن خلفوا لنا تراث فنهم وابداعهم ٠

ويقال ان «النوبات» كانت اربعا وعشرين بعدد ساعات اليوم، كل نوبة تغنى فى ساعة معينة من ساعات الليل والنهار، ويظهر ان هذا القول يستند على اساس صحيح بدليل ان بعض «النوبات» المعروفة الآن تشتمل على قصائد خاصة بالليل او بالفجر او بالعشية او بالصباح٠٠ الخ ٠

هكذا كانت حالة الموسيقى فى الاندلس الاسلامية عند ما ابتدأت الهجرة الى شمال افريقيا ، ففى القرن العاشر للمسيح عند احتلال فرناندو الثالث لقرطبة هاجر خمسون الفا من اهل الاندلس الى تلمسان ، وعند احتلال اشبيلية وقعت هجرة اخرى الى غرناطة وتونس ، وعند ما احتل خيمى دى أراغون بلنسية ، بلغ عدد المهاجرين الى غرناطة وفاس مائتى الف ٠

وهذه الهجرات ادت الى نشوء بعض الاختلافات فى الاسلوب الموسيقى ، ونشأت عن ذلك مدارس مختلفة او طرق موسيقية : المدرسة التونسية واصلها اشبيلى ، والمدرسة

الجزائرية واصلها غرناطى ، والمدرسة المغربية وهى متأثرة بكل من المدرستين البلنسية والغرناطية ٠

ويضاف الى ذلك ان العلاقات بين الاندلس والمغـرب كانت لا تنقطع وساعد على ذلك ان اخذت الموسيقى الاندلسية تتسرب الى شمال افريقيا ويزداد انتشاها فى كل حين ٠

فانتقال الموسيقى الاندلسية الى شمال افريقيا اذن كان انتقالا طبيعيا كما انتقل الى المغرب من الاندلس كثير من المظاهر الثقافية والسياسية والاجتماعية والحربية وقد بلغت الموسيقى الاندلسية فى المغرب غاية الازدهار وقامت تتنافس على الزعامة فى هذا الميدان ثلاث مدن مغربية هى تطوان وشفشاون وفاس ٠

والى يومنا هذا بعـد مرور اربعة قرون لا تـزال هذه الموسيقى حية بين اظهرنا فى المغرب تتردد الحانها فى المدن المغربية حاملة لذلك الاسم الناطق بالحنين الى موطنها الاصلى اسم «الموسيقى الاندلسية» ٠

ولكن تعاقب القرون على هذه الموسيقى قد ترك فيها اثره مع الاسف وبالاخص فى القصائد والاغانى ، فان اللهجة الاندلسية التى كان معظم تلك الاغانى مكتوبا بهـا لم تكـن

مفهومة الا بين المهاجرين الاندلسيين وبالاخص بين الاجيال الاولى منهم ، ولذلك اخذ الشعب يضع ازجالا اخرى مغربية بدلا من الازجال الاندلسية ٠

اما الموسيقى نفسها التى كانت تعيش وتنقل بالسماع من جيل الى جيل فقد اثر فيها ايضا مرور الزمن ولم يدخلها اثناء هذه القرون اى تجديد يبث فيها حياة جديدة بل تركت لهؤلاء الموسيقيين يتناقلونها من جيل الـى جيل بالسماع وهم فى معظم الحالات يجهلون قواعد الفن ٠

وعلى هذا النحو وصلت الموسيقى الاندلسية الى القرن الثامن عشر متأثرة بما ترك الزمن فيها سواء من الناحية الفنية الموسيقية او من ناحية لغة الاغانى واسلوبها ٠

وفى هذا القرن ظهر اسم مهم فى تاريخ الثقافة المغربية وهو اسم محمد بن الحسين الحائك الاندلسى التطوانى ٠

ولا نعرف عن الحائك الا معلومات قليلة، وقد عرفنا اسمه الكامل لانه مذكور فى مقدمة كتابه ، وقد وصف فى تلك المقدمة بالتطوانى ، وهذا ما حمل الذين ذكروا الحائك ممن كتبوا عن الموسيقى فى المغرب على تأكيد انه من سكان تطوان ، ولكن بدراسة قطعة من مخطوط يشتمل على الصفحات الثمان

عشرة الاولى من مخطوط الحائك نجده موصوفا « بالتطوانى اصلا الفاسى دارا» وقد عثر على هذا المخطوط فى فاس ، واذا صح ما فى هذا المخطوط فان الحائك يكون من اصل تطوانى ولكنه من سكان فاس ، وحينئذ يكون قد الف كتابه فى فاس ، وهو شىء طبيعى ، لان فاسا كانت فى ذلك العهد ـ الذى يظهر انه كان عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله بن اسماعيل بن مولاى الشريف ـ هى العاصمة وهى مركز الحركة الثقافية ٠

حاول الحائك ان ينقذ الموسيقى الاندلسية من الضياع الذى كانت تسير نحوه سيرا محتوما فجمع الاغانى التى كان يتغنى بها فى عصره فى دفتر مقسمة على نوبات وعلق على هوامشها تعليقات نفيسة ، ولكن الضياع كان قد عدا على تلك الموسيقى لدرجة ان بعض النوبات لم يبق منها الا عدد قليل من الاغانى ، فمعل الحائك على تنظيم ذلك وجمع البقايا المبعثرة من ذلك البناء الفنى العظيم فى احدى عشرة نوبة جديدة ، واطلق على الاربع والعشرين القديمة اسم «الطبوع»٠

اما الاحدى عشرة نوبة الموجودة فى مخطوط الحائك فهى : رمل الماية ، الاصبهان ، الماية ، رصد الديل ،

الاستهلال ، الرصد ، غريبة الحسين ، الحجاز الكبير ، الحجاز المشرقى ، عراق العجم ، العشاق ٠

وهذا الترتيب يختلف فى بعض النسخ عن بعضها الآخر٠

والنسخة الاصلية من المخطوط غير موجودة او على الاقل يجهل مكان وجودها ، ولكن توجد مع ذلك نسخ كتبت فى ازمان مختلفة ، اما لبعض المكاتب او لاستعمال المحترفين وهذه النسخ يمكن العثور عليها بنوع من الصعوبة فى مختلف مدن المغرب ، ولكن هذه النسخ كما اشرنا تختلف فى ترتيب النوبات وفى ترتيب الاغانى داخل كل نوبة حتى ان بعضها يقتصر على جمع الاغانى الشائعة فى الجهة التى كتب فيها ٠

ويعرف هذا المخطوط باسم «كناش الحائك» واذا قال بعض الموسيقيين ان «عنده الحائك» فهو يعنى انه يقتنى هذا الكناش ٠

والى الآن لم يدرس هذا المخطوط من الناحية الادبية ، وان كان قد كتب عنه من الناحية الموسيقية ٠

وفى سنة ١٣٣٥ (١٩٣٤ ـ ١٩٣٥) طبع بالرباط كتاب مشتمل على ١٨٢ صفحة بعنوان «مجموع الاغانى الموسيقية الاندلسية المعروف بالحائك» جمع فيه جامعه السيد المكى مبيركو

اغانى نوبات رمل الماية ، والعشاق ، والاصبهان ، وغريبة الحسين ، والرصد ، ورصد الذيل ٠

وهو مجهود لا تنكر قيمته ولكنه غير تام ، لانه زيادة على كونه لم يشتمل الا على ست نوبات من احدى عشرة، فانه لم يشتمل على جميع الاغانى، ولم يشتمل على شىء من الاغانى المكتوبة على هوامش بعض المخطوطات لبيان بعض الفروق والاختلافات مع الاصل ، وهذا الكتاب له صفة موسيقية فقط ٠

وعلى ذلك فقد بقى الميدان فارغا الى الآن من دراسة لغوية وادبية لمخطوط الحائك وهو ما اريد ان اتكلم عنه فى هذا الحديث ٠

ولكن قبل ذلك أحب ان اتعرض لتشدد الفقهاء فى موضوع الموسيقى ،فقد حدث مع الموسيقى ما حدث مع الشعر فى صدر الاسلام ، فلم يقبل عليها الخلفاء الاولون الذين غلبت عليهم نزعة التقشف والجد التى عرف بها العرب ٠

ولم تظهر الحركة الفنية فى مكة والمدينة الا فى العهد الاموى ثم ادخلت الخمر والموسيقى الى قصور دمشق ومنذ ذلك الحين وهما رفيقان لا يفترقان ، وبعد ذلك كان العباسيون فى قصور بغداد بصفة عامة حماة الموسيقى والغناء وكانت

قصورهم غاصة بالمغنين والجوارى والمغنيات ، وقد ارتفعت أصوات بعض الفقهاء باستنكار الغناء والموسيقى واعتبار الاشتغال بهما مخالفا لتعاليم الاسلام ، ولكن ذلك لم يستطع ايقاف تيار هذا الفن المندفع ، وفى الاندلس ايضا قام بعض الفقهاء بمحاربة فن الموسيقى والغناء ، ولكن ذلك لم يحل دون انتشاره الى درجة ان بعض الفقهاء أنفسهم ـ كما يقول ربيرا ـ لم يسعهم الا ان يتحملوا ان تفتح نساؤهم فى نفس بيوتهم مدارس للموسيقى والغناء ، بل اضطروا ان يسمحوا للشعب برفع الاصوات بالغناء داخل المساجد نفسها .

والى الآن لا يزال موقف الفقهاء فى المغرب من الموسيقى موقف تشدد ، وان كان رجال الطرق الدينية يستعملون الموسيقى فى اجتماعاتهم وحفلاتهم الصوفية .

وهذا هو السبب فى ان «الحائك» ابتدأ كتابه بمقدمة من نحو ست عشرة ورقة ملاءها بفتاوى بذل الوسع فى جمعها لاثبات اباحة الموسيقى والغناء .

وهذه المقدمة مشتملة على اربعة اقسام ، فى القسم الاول منها يعرض المؤلف مسائل وملاحظات الغرض منها ان يجعل القارىء يدرك ان الموسيقى لا تضر الروح والاخلاق

والقسم الثانى جعل المؤلف عنوانه «فائدة الموسيقى وقواعدها» ولكنه لم يتعرض لشىء من ذلك ، واقتصر فى هذا القسم على مدح الموسيقى مستعينا بقصيدتين : احداهما لابن عبد الجبار الفكيكى والثانية لابى محمد الصباغ ، وبعدهما اورد بعض النصوص المؤيدة لنظريته ٠

والقسم الثالث جعل المؤلف عنوانه «اصل الموسيقى وقواعدها» وقد تعرض لاصلها بطريقة ساذجة ، اما قواعدها فلم يتعرض لها ٠

واما القسم الرابع فجعل عنوانه « الطبوع » والعنوان هنا مطابق للموضوع ، فقد ذكر فى هذا القسم الطبوع وذكر حتى اسماء المندثر منهـا ، ولكنه لم يتعـرض لشرح تطور النوبات الاولية ، وسأنقل فيما ياتى بعض امثلة مـن هذه المقـدمـة ٠

الحمد لله الذى اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وامتعنا بلذة السماع وجعله قوتا للقلوب وشنفـا وقرطـا للاسماع ، وصحة للابدان تستوفى بها الاعضاء قواها وتبلغ منتهاها فى الاستمتاع ، وقادة لارتياح الارواح وتاتى الانس الذى شارك السلاف فى الرضاع ، وتواخى معه فى الانتفاع ، وحرك ما كان ساكنا برقة الاوتار ونغمات اليراع » ٠

وبعد ذلك اورد الحائك حديثا لاثبات ان النبى لم يكن معارضا فى الموسيقى ونصه :

«فبادروا الى لقائه واحدقوا تلقائه ، ببنيهم وبناتهم ، مستبشرين بما آتاهم الله من فضله وهم يطربون ويلعبون بغنائهم » .

«ومعلوم ان ما ذكر من طربهم وشوقهم وجدهم فيه كان بمرآى منه ومسمع وانه لم ينقل عنه احد سنى ولا ملحد ولا مجد ولا مبعد انكارا فى شىء من ذلك على انه قد علم من الدين ضرورة انه صلى الله عليه وسلم لا يقر احدا على باطل ، ويسمح له فعلا كان او قولا من قائل » .

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يستشهد فيها بكلام النبى ، ولكن رغبة فى عدم الاطالة سأكتفى بمثالين آخرين مما ورد فى المقدمة :

«وقد نقل عن عبد الله بن اوس قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بجارية تغنى وتقول :

هل على ويحكما ان لهوت من حرج

وقال عليه الصلاة والسلام لا حرج ان شاء الله» .

«قيل لابى سالم كيف تكره السماع وكان الجنيد والسرى وذو النون وغيرهم يسمعون ، قال كيف انكره وقد اجازه وسمعه من هو خير منى ومنهم » .

وسأكتفى من بين النصوص الكثيرة التى اوردها الحائك فى القسم الاول بنقل ثلاثة منها ، النص الاول يتعلق بهارون الرشيد أشهر الخلفاء العباسيين، وخليفة الف ليلة وليله وهو:

«وقال الامام ابن عرفة ولما عرف الخطيب الامام ابوٌ بكر بن ثابت فى تاريخ بغداد بالعالم الصالح ابراهيم بن سعد بن ابراهيم المزنى قال : قدم العراق فأكرمه الرشيد فسأل عن الغناء فأفتى باباحته فأتاه بعض المحدثين ليسمع منه احاديث الزهرى فسمعه يغنى فقال كنت حريصا على السماع منك فاما الآن فلا سمعت منك حرفا وقال اذا لا افقد الا شخصك وعلى الا احدث ببغداد ما اقمت به حديثا حتى اغنى قبله فبلغ ذلك الرشيد فدعا به فسأله عن حديث المخزومية التى قطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرقة الحلى فدعا بعود فقال الرشيد أعود المجمر فقال لا ولكن عود الطرب فتبسم ففهمها الشيخ ابراهيم بن سعد فقال لعله بلغك يا أمير المومنين حديثى الذى ألجأنى الى ان حلفت فدعا الرشيد بعود فغناه

فقال الرشيد من كان من فقهائكم يكره السماع وهل بلغك عن مالك ابن انس فى ذلك شىء فقال لا والله الا انى اخبرت انهم اجتمعوا فى مدعوة فى بنى يربوع وهم يومئذ حلة ومالك اقلهم من فقهه وقدرة ومعهم دفوف ومعازيف وعيدان يغنون ويلعبون ومع مالك دف وهو يغنيهم » .

والنص الثانى يتعلق بأول خلفاء بنى أمية وهو :

«ودعا عبد الله بن جعفر معاوية للطعام فلما وضع معاوية يده فيه حرك مغن الاوتار وغنى فأعجب غناؤه معاوية فقبض يده عن الطعام وجعل يضرب الارض برجله طربا وقال: لا بأس بحكمة الالحان، قال ذلك ثلاثا وسمع معاوية ايضا غناء فطرب طربا شديدا وجعل يحرك رجليه طربا فقال ابن جعفر انك تحرك رجليك فقال معاوية: كل كريم طروب» .

واخيرا النص الثالث وهو يتعلق بالامام ابى حنيفة امام المذهب المنسوب اليه وأحد ائمة المذاهب الاربعة، وهذا هو النص :

«وكان لابى حنيفة جار خمار يغنى على شرابه كل ليلة:

اضاعونى واى فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فتأنس به ابو حنيفة ففقد صوته ليلة فسأل عنه فقيل له سجن فشفع فيه عند الامير فسرح كل من سجن تلك الليلة لاجله فقال له عند ذلك وهل اضعناك قال لا يا سيدى» .

كل هذه النصوص وردت فى القسم الاول من المقدمة وفى القسم الثانى من بين الفقرات التى يشيد فيها الحائك بالموسيقى قوله :

«وما خلق الله شيئا اوقع فى القلوب واشد اختلاسا للعقول من الصوت لا سيما اذا كان من وجه حسن فلا يحل لامرىء مسلم ان يعيبه على من شغف بـه فـان ذلك من رقة النفس ولطافتها واعتدال المزاج » .

وبعد عدة اشعار يورد الحائك قصيدة من بحر الطويل لابى عبد الله الفكيكى وأخرى من نفس البحر لابى محمد الصباغ وكلتاهما فى فضل الموسيقى.

وفى القسم الثالث يذكر الحائك ان اصل ظهور الغناء كان فى بعض مدن جزيرة العرب حيث كانت تعقد الاسواق وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى واليمامة.

وفيما يتعلق بالعود يذكر بكل سذاجة :

ويقال ان اول من صنع العود لامك بن وائل بن قابل ابن آدم وبكى به على ولده وقيل ان صانعه بطليموس صاحب الموسيقى وهو واضع كتاب اللحون الثمانية وقيل صنعته الجن لسليمان بن داوود عليهما السلام ليذكر به صوته الحسن فانه كانت تقف الطير فى الهواء لسماع قراءته الزبور» .

ولنشرح هذه الفقرة : لامك اول صانع للعود على قول الحائك ورد ذكره فى نصوص اخرى باسم لامك بن خنوخ ابن برد بن قابل بن شيث بن آدم ، كما ورد هكذا جبول بن لامخ بن لنوش بن قابل، وفى الحقيقة ان هذا كله اشارة الى ما فى التوراة (سفر التكوين الفصل الرابع من الآية ١٨ الى ٢١) حيث يذكر لامك بن حنوك وابو جوبل الذى كان ابا لكل من استعمل القيثار والارغن .

اما بطليموس مبتكر الموسيقى على قول الحائك فهو كلوديو بطليموس الرياضى والجغرافى المصرى من اهل القرن الثانى للميلاد المولود فى طلميدة والذى عاش واشتغل بالاسكندرية ، ووضع زيادة على اعماله الرياضية والفلكية والجغرافية ثلاثة كتب فى الموسيقى تشتمل على نظرية الاصوات المستعملة فى الموسيقى الاغريقية وفى هذه الكتب

جمع كل ما وصلت اليه الفيزياء فى ذلك الحين فى ميدان الصوت ٠

اما عن سيطرة سليمان على الجن وجمال صوت داود فتوجد الاشارة الى ذلك فى القرآن الكريم ٠

وفى القسم الرابع يذكر اسماء بعض الطبوع الضائعة الآن فى المغرب ثم يذكر بعد ذلك قصيدة من بحر الطويل لعبد الواحد الونشريسى «فى الطبائع والطبوع والاصول» وهى قصيدة طريفة أريد ان اتوسع قليلا فى الكلام عنها٠

عاش صاحب هذه القصيدة فى فاس حيث تولى القضاء والافتاء والتدريس ومات مقتولا عند احد ابواب جامع القرويين سنة ٩٥٥ للهجرة (١٥٤٨ للميلاد)٠

هذه القصيدة مبنية على العلاقة التى كان يظن وجودها بين الموسيقى وبين الطبائع وكانت هذه العقيدة مألوفة فى بلاد اليونان ، لانه زيادة على اسطورة أرفيو كانت تنسب الى الانغام الموسيقية خواص معينة ، وكان ارسطو نفسه ينصح باستعمال نغم معين لجعل الاطفال يكتسبون العادات الحسنة٠

وفى هذه القصيدة التى نتحدث عنها تنسب الى انغام كل نوبة تأثيرات معينة على طبيعة الانسان ويشار باستعمال

كل نوبة فى الحالة التى تناسبها ، وتذكر القصيدة ان الطبائع اربع السوداء والبلغم والدم والصفراء ٠

فطبوع الذيل ورمل الذيل، ورصد الذيل، والاستهلال ، وعراق العرب ، وعراق العجم ، ومشرقى الذيل ـ تحرك السوداء ٠

والبلغم يتأثر بالزيدان، والاصبهان، والحجاز الكبير، والحصار ، والزوركند ، والعشاق ٠

والدم تحركه المايه، والرصد، ورمل المايه، وانقلاب الرمل، والحسين، والحجاز المشرقى٠

والصفراء تتحرك بالمزموم، والغريبة المحررة، وغريبة الحسين، والحمدان ٠

وهذه الاسماء هى اسماء النوبات الاربع والعشرين الموجود منها الآن احدى عشرة نوبة كما اشرت الى ذلك من قبل ٠

وموضوع العلاج بالموسيقى موضوع جذاب، وفى المغرب يمكن ان تجمع مادة كافية فى هذا الموضوع لاعداد بحث فيه يمكن ان يقوم به احد الاطباء المولعين بالموسيقى ٠

بل ان هذا الموضوع لا يقف عند حدود المغرب فقد قرأت فى السنة الماضية هذا الخبر فى احدى الجرائد «الموسيقى عنصر مساعد فى الطب» ـ لا بلاطا (الارجنتين) ـ ادخلت الهيئة الصحية العامة فى هذه البلدة على وسائلها شيئا جديدا يقوم ـ كما تقول ـ على أسس علمية حديثة ثابتة ، وذلك أنها ابتدأت تستعمل الموسيقى كعنصر مساعد فى العلاج فى المؤسسات الصحية العامة فأصبحت الآن تعزف فيها فى بعض الاحيان موسيقى سينفونية لملحنين كلاسيكيين ذات تأثر كبر فى المرضى » ٠

ونحن نرى فى هدا الخبر تجددا لنفس الفكرة التى كانت عند الاغريق فى عهد الاساطير ٠

وبعد هذه القصيدة تنتهى المقدمة ويقول الحائك انه سيشرع فى شرح كل طبع من الطبوع مع قصائده واغانيه ٠

ويذكر بالفعل بعد ذلك النوبات الاحدى عشرة ، ويقدم لكل نوبة منها بمقدمة تمهيدية يشرح فيها اصول النوبة ، وخواصها ـ الحقيقية او الوهمية ـ وبعد ذلك يذكر القصائد التى تغنى فى هذه النوبة والتى ليس عددها واحدا فى جميع

النوبات ، وكل اغنية يعنونها بموشح او زجل او شغل ، وليست هذه العناوين دقيقة دائما ٠

ونحن نعلم ان التوشيح (او الموشح) والزجل فنان من فنون الشعر ظهرا فى الاندلس ، وخرجا عن قوالب الشعر العربى التقليدية ، ويختلفان فيما بينهما من حيث لغتهما ، فلغة الموشح فصيحة معربة ، ولغة الزجل عامية ملحونة ، اما «الشغل» فهو عبارة عن ابيات تزاد على مقاطعها او على كلماتها عند الغناء عناصر غنائية ، واحيانا جمل كاملة كما فى الطراريرو عند الاسبانيين ، وهذه الاشغال فى الغالب اجزاء من بعض قصائد ٠

وتوجد فى الغالب بهامش كل أغنية أغنية أخرى تغنى فى نفس النغم فى موضوع دينى والغالب ان تكون فى مدح الرسول كما يوجد فى الهامش ايضا النص على الطبع الذى تغنى فيه الأغنية ، وعلى بحرها العروضى ان كان ٠

وعلى الاغنية او الصنعة ينبنى جسم النوبة وانغامها ٠

اما من الناحية الادبية فالصنعة بصفة عامة انما هى قطعة من قصيدة طويلة او قصيرة ، ويختلف عدد ابياتها من واحدة لاخرى ، فمنها ما يتألف من بيت واحد ومنها ما يبلغ

ستة عشر بيتا ، والغالب ان تتألف من ثلاثة ابيات او اربعة او خمسة، وقد راعى مؤلفو النوبات ، ان يختاروا لكل نوبة من الشعر ما يناسب روح النوبة فتتركب من المجموع فسيفساء بديعة ٠

وزيادة على الاخطاء الكثيرة التى ارتكبها النساخ فى النسخ المختلفة التى رجعت اليها تلاحظ بصفة عامة عيوب واغلاط نحوية وادبية لا بد انها صادرة عن المؤلف الذى كان مطلعا على الموسيقى ولكنه كان ضعيف الاسلوب العربى ، ويتجلى اسلوب المؤلف فى المقدمة والخاتمة ، والتعليقات التى على هامش الكتاب ٠

اما الموضوعات الاساسية للاغانى فهى : الخمر والحب والطبيعة والروائح والازهار والليل والفجر والاصدقاء ، الخ٠ وكلها تقريبا من النوع الماجن (باستثناء الاغانى التى على الهامش والتى موضوعاتها دينية) وليس غريبا ان توجد بينها بعض اغانى فى التغزل بالمذكر ٠

ولاجل اعطاء فكرة عن نوع القصائد التى اشتمل عليها هذا الديوان فقد اخترت بعض مقطوعات ، وهأنذا اقدمها مرتبة على حسب الموضوعات مبتدئا بالخمريات من نوبة رمل الماية:

بانقلاب الرمل عللنى اذا ما ترشفت ضمير الكؤس
بين عود ورباب وظباء حسان واخلاء جلوس

من نوبة المايه :

اذا اصفرت الشمس وحان فراقها
فكن منشدا للماية يا اخا الطرب
وبادر باحساء الكؤس ونزه عيونك
فى ثوب الاصيل مثل الذهب

من نوبة رصد الذيل :

يا اخى قم نرى النسيم عليلا
باكر الراح والمدام شمولا
فى رياض تعانق الزهر فيه
مثل ما عانق الخليل خليلا

هذه الاغنية «شغل» وبيتاها هما البيتان الاول والثالث من قصيدة لابى بكر محمد بن القبطرون الذى عاش فى مراكش وكان كاتبا ليوسف بن تاشفين ، والخطاب فيها لاخيه محمد الذى كان وزيرا فى اشبيلية .

من نوبة الرصد :

بطبع الحصار فانشدن يا مؤنسى
وروح نفوس العاشقين من الغرام
وناولهم كأس العقار فانهم
يداوى من الضنى ويشب الهرم

من نفس النوبة :

الا رجع بالزيدان اذا ما
سمعت يا صاح اصوات المثانى
ادر صرف المدامة واسقنيها
فيومنا ما له فى الحسن ثانى

من نوبة غريبة الحسين :

بالمحررة الغريبة فالنشد وانشد غريبة الحسين
واسقنى خمرة معتقة اللون فذاك فيه قرة عينى

من نفس النوبة هذا الزجل لابن الخطيب :

امزج الاكواس املا لى نجدد
ما خلق المال الا يبدد
قم ترى الاوراق ترقص فى حليها
والنسيم يعبق يقبل يديها

والطيور تنطق تولول عليها

وترى الجوهر منظوم فى زمرد

ما خلق المال الا يبدد

من نوبة الحجاز الكبير :

اسقنى خمرة الدنان فانى

فى هواها افنيت صاح شبابى

وانشدن الحجاز يا صاح جهرا

فغرامة قد اطال عدابى

من نفس النوبة هذا الزجل :

اللوز فاح شدد عمائم على البطاح اغرم دراهم

قل للملاح الفرح دائم قوموا بنا نهد الكؤس

من خمرة تحيى النفوس مع الصباح فاق الشموس

من نوبة الحجاز المشرقى :

ادرها كلون التبر نورا وغن لى

بألطاف ما شادت به النغمات

بطبع الحجاز المشرقى فانه به

وبها تستجلب النشوات

من نوبة عراق العجم هذا الزجل :

هذا الصباح صبح سعيد جا بالهنا
فى كل يوم فرح جديد نيل المنا
الاطيار تسبح للمجيد هو ربنا
بلسون فصاح عند الصباح يستفهم
كؤوس راح بين الملاح قم نغنم

من نوبة العشاق هذا الموشح :

الزهر باسم والياسمين رش البطاح
فقم يا نائم نجدد فى الاصطباح
فقم يا انسان تسمع غناء أم الحسن
غنت فى بستان الزهر فيه من كل فن
نسرين وسوسان قد عانقوا ورد الزوان
الروض ناعم رش الندا فوق اللقاح
فقم يا نائم نجدد فى الاصطباح

ولننتقل الآن الى موضوع الحب ٠

من نوبة رمل الماية هذا الموشح الذى هو تحوير لموشح آخر لابى بكر بن زهر :

ما لى مولة من حيرتى لا افيق والله سكران
من غير خمر انا الكئيب المشوق غريب الاوطان

هل تستعاد ايامنا بالخليج ولياليـنـا
اذ كان حسن المكان البهيج ان يحيينا
روض اظله دوح عليه انيق مورق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

من نوبة الاصبهان هذا الموشح :

قلت لما زارنى طيف الخيال مـن رشـا الانـس
مرحبا بالزائريـن حلـو الخـلال مخـجل الشمس
والـذى انشـاك مـن مـاء الـزلال واحـد الـجـنس
ما برى جسمى ولا غيرنى خـوف هجرانـى
انمـا غيـر جسمـى مرضا لحظك الرانـى

من نفس النوبة هذا الزجل :

قلبـى يخـاف من الغرام والـعـشـق سـيـرا
وايـن يـرفـرف كالحمـام نـحـو الـجـزيـرا
يـا عاشقـين شنه الكـلام واشـه الـسـريـرا
فـكـل مـن يـرانـى يـقول ذا الشـخص احمق
لـكـن دعـه يسـتـهـل واش جـاب يـعـشـق

من نوبة الماية هذا الموشح :

انظـر الـى الـبسـتـان مـا بيـن ثـوب اخـضـر
والـشمس كـالـعقـيـان نـزهـة لـلـمـنـظـر

اغنم منى النفس عشية يوم عجيب
مع شادن الانس بين المحب والحبيب
انظر الى الشمس كيف عولت على المغيب
شمس على الاغصان بثوبها المزعفر
تطفا وتلوان كالتبر او كالجوهر

من نوبة الاستهلال هذا الموشح :

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكان هلالين عند النظر
فلم ادر من حيرتى فيهما هلال الدجى ام هلال البشر
فلولا التورد فى الوجنتين وما راعنى من سواد الشعر
لكنت اظن الهلال الحبيب وكنت اظن الحبيب القمر
فذاك يغيب وذا لا يغيب وما من يغيب كما من حضر

من نفس النوبة هذا الزجل :

امرضوا فلا طبيب لى ولا راقى امرضوا والدموع تجرى سواقى
امرضونى وجفونى وسقونى ما سقونى
وعدونى ما وفونى عن ودادهم نسونى
حلة الهجر كسونى انظروا صفه لونى
لما رضوا بفرقة واشتياق
ولا نزول على العهد الوثاق

من نوبة غريبة الحسين :

هل مداو للهوى يداوى سقامى
عاجلا قلبى بالهوى انكوى
ودمع تراه سائلا نجمى فى
الهوى هوى وحبى تراه مائلا
عن لقائنا ما نوى ان يكن
لدى واصلا بغيب
منيتى عالج يا طبيب سقمى ودائى
عسى عن قريب نبلغ منای عالج يا طبيب
قلبى الكئيب بوصل الحبيب ومعى اجمع
من غير رقيب فى روض عجيب منوع خصيب
يقول الاديب قولى ما ابدع يعجب
بالزهر معتبر بالنظر لمن حضر

من نوبة الحجاز الكبير هذا الموشح لابراهيم بن سهل:

ليل الهوى يفظان والحب ترب السهر
والصبر لى خوان
والنوم عن عينى برى يا زهرة الانس
روض المنى منك جديب

لـولاك لـم امس فـى الدار والاهـل غـريـب

رضـاك للـنـفـس

مثـل الصبا بعد المشيـب والـمـاء لـلـهـفـان

واليسـر بـعـد العسر

من نوبة الحجاز المشرقى هذا الشغل :

عينـى لـغيـر جمـالـكـم لا تنظـر

وسـواكـم فـى خـاطـرى لا يخطـر

وسـألـت قلبـى عنكـم فـأجابنـى

لا صبـر لى لا صبـر لى لا اصبـر

لا صبـر لـى حتـى اراكم بنـاظرى

وعلـى محبتـكـم امـوت واحشـر

من نفس النوبة هذا الزجل :

بالله يـا حمـام احمـل كتابـى الـى الحبيـب

امـا تـرى دموعى تنهـال مـن شـدة اللهيـب

طـال المغيـب ونلـت امـال مجيه من قريـب

اش حيلة الـذى يقـارب خل ولم يدرى حبيب

انـا الـذى مسيـت مفـارق والبعـد لـى قريب

من نوبة عراق العجم هذا الموشح :

اقبلت دولة الرضى
ومضى الهجر وانقضى
رجع الخل زائرى
بعد ما كان معرضا
عاذلى لا تلومنى
قد رضيت بما قضى
يوم بانوا احبتى
ضاق بى واسع الفضا
وترى كل عاشق
يقطع الليل ابيضا

من نفس النوبة هذا الشغل :

ولو اننى امسيت فى كل نعمة
وجادت لى الدنيا بملك الاكاسرة
لما سويت عندى جناح بعوضة
اذا لم تكن عينى لوجهك ناظرة

وهاكم الآن قصيدتين فى الفجر :

من نوبة العشاق :

ألا فاشد بالعشاق فالصبح قد بدا
ورجع بذيل فالظلام قد ارتفع

أما تنظر الورق الحسان غدت على
منابرها صاح تنبه من هجع

من نفس النوبة :

بنغمة رمل الذيل فاشد يا مؤنسى
فنغمته الحسنى تخبر بالفجر
فقم وداو بالخمر من كان نائما
واستنشق من البستان نسيمة الزهر

ومن موضوع الصداقة اخترت هذه القطع الثلاث :

من نوبة رمل الماية هذه القطعة، والابيات من قصيدة لمهيار الديلمى :

ومن عجب انى احن اليهم
وأسأل شوقا عنهم وهم معى
تفيض دما عينى وهم فى سوادها
ويشكو النوى قلبى وهم بين اضلعى

من نوبة الرصد هذا الشغل :

قلوبنا موضوعة عندكم
امانة نعجز عن حملها

ان لم تصونوها باحسانكم

ردوا الامانة الى اهلها

من نوبة العشاق هذا الشغل :

يا بانة الحى احبابى متى بانوا

ترحلوا وهم بالقلب سكان

بانوا فبان اصطبارى يوم بينهم

واقفرت منهم دور واوطان

وخلفونى فريدا فى منازلهم

كأنهم فى مغانى الحى ما كانوا

وانقل هذين البيتين فى الحنين لشهرة صاحبها المتنبى وهما مذكوران فى نوبة الاصبهان :

لك يا منازل فى القلوب منازل

اقويت انت وهن منك اواهل

واذ اتتك ملامة من ناقص

فهى الشهادة لى بأنى كامل

وهذان البيتان من قصيدة للمتنبى من ٤٣ بيتا ، والبيت الاول فى الشغل هو مطلع القصيدة ، والبيت الثانى هو

البيت ٣٩ فى القصيدة ، وبذلك يفهم سبب عدم ارتباطه بالبيت الاول ٠

وهذه القصيدة قالها المتنبى فى مدح القاضى ابى الفضل احمد بن عبد الله الانطاكى الذى يشبهه بالشمس والغيث وغير ذلك من عناصر الطبيعة ، ويبدأ القصيدة بمخاطبة المنازل التى كانت تنزلها محبوبته ، وينتقل بعد ذلك الى وصف جمال المرأة ليتخلص فى النهاية الى مدح القاضى الانطاكى٠

وبما اننا قد ابتدأنا هذه النماذج بالخمريات فلنختمها بموضوع خلقى ورد فى نوبة غريبه الحسين :

انت بما قد سقيت شارب ... من رائق كان او كدر
سهمك فى الغير فيك صائب ... ما لك عن نصله مفر
ثمار ما قد غرست تجنى ... وهذه عادة الزمان
خذ الحديث الصحيح عنى ... كما يدين الفتى يدان
من بات منه الورى فى أمن ... بات من الدهر فى أمان
الدهر بحر له عجائب ... وهو خطوب لمن نظر
فاطرح الغى عنك جانب ... وخذ على نفسك الحذر

وبعد النوبة الاخيرة ينتهى الكتاب بخاتمة يطلب فيها المؤلف من الله تعالى العفو والمغفرة عما ورد فى الكتاب من لهو ومجون وان يسدل على ذلك رداء الصفح والغفران ٠

وهنا نستطيع ان ننتهى نحن ايضا ، ولكنى استسمحكم فى ان اشغـل بعض لحظات اخـرى من انتباهكم لعرض بعض النتائج اللازمة فى مثل هذا البحث .

ان ما عرضته انما هو ملخص وجيز من بحث اوسع ، وان كان هذا البحث نفسه غير تام الى الآن ، فالموضوع جذاب يتطلب دراسة عميقة من ناحيتيه الادبية والموسيقية .

وللمخطوط الذى نتحدث عنه قيمة كبرى من الناحيـة الادبية لانه مجموعة شعرية مشتملة على كثير من الموشحات والازجال وان كانت هذه الازجال فى الغالب ليست قديمة جدا لانها ليست اندلسية بل هى مغربية ، اما عن الموشحـات فلا اظن انه من السهل العثور فيها على «الخرجات» الرومانسية وهى الدرر التى يبحث عنها الآن بكل لهفة فى محار الشعر .

ولكن على الرغم من هذه الملاحظات ، فان لهذا المجموع أهمية مضاعفة لكونه بقية من تلك الاخوة القديمة بين الشعر والموسيقى حين كـان النـاس لا يتصورونهمـا الا مجتمعيـن ولكونه يفتح امامـنا ميدانـا هامـا للبحث اللغوى ولدراسة اللهجات .

ولذلك كان نشر الكتاب كاملا عملا فى غاية الاهمية على ما يحف به من صعاب ، ولكنه يستحق ما يبذل فيه من مجهود

لا من ناحية لذة العمل فى حد ذاته والنتائج العلمية التى يمكن ان تترتب على دراسته فقط، بل لان فى نشر هذا الكتاب خدمة كبيرة للمغرب لما فى جمع الاغانى التى تشتمل عليها النوبات فى مجموعة كاملة من المحافظة عليها وانقاذها مما هى سائرة نحوه الآن من التحريف والضياع ٠

ومثل ذلك يقال فى الموسيقى غير ان الناحية الادبية واللغوية لا تزال بكرا الى الآن ، اما الناحية الموسيقية فقد قام بدراستها بعض الباحثين ومن ابرزهم اليكسس شطان بالرباط الذى نشر من نحو عشرين سنة ميزان البسيط من نوبة العشاق دون ان يواصل مع الاسف هذا العمل ، وفى هذه المنطقة اشتغل بهذه الناحية منذ مدة العالم الموسيقى بوسطلو ولا تزال مواد عمله محفوظة ٠

وفى الوقت الحاضر يشتغل فى تطوان الاب بطروثنيو غرسيا وضون اركاديو لريا ٠

ولكن لهذا العمل ناحية لا ينبغى ان ننساها وهى انه لا يمكن القيام بعمل كامل او قريب من الكمال اذا لم يوجد تعاون بين الناحيتين الموسيقية والادبية ، فاذا اهمل الموسيقي هذه النقطة ولم يبن عمله على نص ادبى جيد قد اختير بعناية

تامة فانه يكون عرضة لعدم الوصول الى غرضه المنشود ، فلا بد من الحصول على النصوص الصحيحة النهائية للاغانى كما انه لا بد ان تدون ايضا بصفة نهائية موسيقى النوبات التى لا تزال الى الآن تنتقل من جيل الى جيل عن طريق السماع ٠

فبهذا العمل ـ زيادة على ما له من الاهمية العظمى من الناحية العلمية ـ نكون قد خدمنا المغرب وحققنا غاية من الغايات الاخوية التى لاسبانيا فى هذه الديار ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

تم طبع هذا الكتاب يوم 25 رجب
عام 1372 موافق 10 ابريل سنة
1953 في معامل دار الطباعة
المغربية الموجودة في شارع
ابن حسين 10 - 12
تطوان (المغرب
الاقصى)

كناش الحائك او مجموعة اغانى مغر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030125

784
H149kaA